مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(أعمال الرسل ١: ١–٨)

إنّي قد أنشأتُ الكلامَ الأوَّلَ يا ثاوفيلُسُ في جميعِ الأمورِ التي ابتدأ يسوعُ يعملُها ويعلِّمُ بها* إلى اليومِ الذي صعِدَ فيهِ من بعدِ أنَّ أوصى بالروحِ القُدُسِ الرُّسلَ الذينَ اصطفاهم* الذين أراهم أيضاً نفسَهُ حيًّا بعد تألُّمِه ببراهينَ كثيرةٍ وهو يتراءى لهم مدَّةَ أربعينَ يوماً ويُكلِّمهم بما يختصُّ بملكوتِ اللهِ* وفيما هو مجتمِعٌ معهم أوصاهم أن لا تبرَحوا من أورَشليمَ بل انتظِروا موعِدَ الآبِ الذي سمِعتُموهُ مني* فإنَّ يوحنا عمَّد بالماءِ وأمَّا أنتم فستُعمَّدون بالروحِ القدسِ لا بعدَ هذه الأيام بكثير* فسألَه المجتمعون قائلينَ يا ربُّ أفي هذا الزمان تردُّ المُلْكَ إلى إسرائيل* فقال لهم ليسَ لكم أن تعرفوا الأزمنةَ أو

وطئ الموت بالموت

«أيها الرب الإله فلتمجدك البرايا بأسرها مع كل نسمة لأنك بصليبك المحيي أبدتَ قوَّة الموت لكيما تُظهر للشعوب قيامتك من بين الأموات بما أنك محب للبشر وحدك» (سَحَر الإثنين من أسبوع حاملات الطيب).

ما يلفتنا في ترنيمة الفصح «المسيح قام من بين الأموات...» هو عبارة «ووطئ الموت بالموت». فهذا إعلان عقائدي أساسي: بموته أباد المسيح الموت وحطمه. فما الذي حصل على الصليب عندما عُلِّق عليه السيد؟ كيف وُطئ الموت بموت السيد؟

العدد ٢٠٠٨/١٧

الأحد ٢٧ نيسان

الفصح المقدس

المسيح قام - حقاً قام

نذكر جيداً ما كُتب في سِفر التكوين، إذ بعدما خَلق الله آدم أوصاه قائلاً: «وأمَّا شجرَةُ معرفةِ الخيرِ والشرِّ فلا تأكُلْ منها. لأنَّكَ يومَ تأكُلُ منها موتاً تموتُ» (٢: ١٧). أغوت الحية حواء ولم يُطِع آدم وامرأته وصية الرب وكانت النتيجة ان قال الرب لآدم: «بعَرَقِ وجهِكَ تأكُلُ خُبزاً حتى تعود إلى الأرضِ التي أُخِذتَ منها. لأنَّك تُرابٌ وإلى ترابٍ تعودُ» (تك ٣:١٩).

إذاً، آدم هو الذي حكم على نفسه بالموت، فكان الموت علامة تسلُّط الشرير على البشر. لكن الله المحب البشر الذي خلق الإنسان في البدء لم يشأ بسبب محبته أن يبقى الإنسان بعيداً عنه وسعى هو وراء من خانه لكي يعيده إلى الأحضان الأبوية: «... ولم تنسَ عمل يديك، بل افتقدته على طرائق كثيرة بتحنن رحمتك. فأرسلت أنبياء وصنعتَ قوات على أيدي قديسيك الذين أرضوك في كل جيل. وخاطبتنا بأفواه عبيدك الأنبياء وسبقتَ فأخبرتنا بالخلاص العتيد، وأعطيتَنا ناموساً يعيننا، وأقمت ملائكة تحرسنا. ولما حان كمال الزمان كلّمتنا بإبنك نفسه» (قداس القديس باسيليوس). تجسّد السيد وبشَّر البشر بالخلاص وبالإنعتاق من سلطة العدو الشرير، لكن هذا الانعتاق تم على الصليب. كيف؟

في إحدى القراءات الإنجيلية التي تُليت علينا مساء الخميس العظيم سمعنا انه بعدما عُلِّق الرب على الصليب كانت ظلمة على الأرض من الساعة السادسة (١٢ ظهراً) إلى التاسعة (٣ بعد الظهر) وصرخ الرب

الأوقاتَ التي جعلها الآبُ في سلطانه* لكنَّكم ستنالون قوَّةً بحلول الروح القدس عليكم وتكونونَ لي شهوداً في أورَشليمَ وفي جميعِ اليهوديَّةِ والسامرةِ وإلى أقصى الأرض.

الإنجيل

(يوحنا ١: ١–١٧)

في البدءِ كان الكلمةُ والكلمةُ كان عند الله وإلهاً كان الكلمة* هذا كان في البدءِ عند الله* كلٌّ به كان، وبغيره لم يكن شيءٌ مما كُوّن* به كانتِ الحياة والحياةُ كانت نورَ الناس* والنورُ في الظلمة يُضيءُ والظلمةُ لم تدركْهُ* كان إنسانٌ مُرسَلٌ من الله اسمُهُ يوحنا* هذا جاءَ للشهادة ليشهدَ للنور. لكي يؤمنَ الكلُّ بواسِطتِه* لم يكنْ هو النور بل كان ليشهدَ للنور* كان النورُ الحقيقيُّ الذي يُنير كلَّ إنسانٍ آتٍ إلى العالم* في العالمِ كان والعالمُ به كُوّنَ والعالمُ لم يعرفْهُ* إلى خاصَّته أتى وخاصَّتُه لم تقبَلْه* فأمَّا كلُّ الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يكونوا أولاداً

يسوع «إلهي إلهي لماذا تركتني» (متى ٢٧:٤٦). حاول أحد الجند أن يسقيه خلاً، ثم «صرخ يسوعُ أيضاً بصوتٍ عظيمٍ وأسلَمَ الروحَ. وإذا حِجابُ الهيكلِ قد انشقَّ إلى إثنينِ من فوقُ إلى أسفلُ. والأرضُ تزلزلَتْ والصخورُ تشقَّقت والقبورُ تفتحت وقام كثيرٌ من أجساد القديسينَ الراقدينَ وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينةَ المقدَّسةَ وظهروا لكثيرينَ» (متى ٢٧:٥٠–٥٣). إذاً، لحظة موت الرب على الصليب انشقَّ حجاب الهيكل، أي تحطم الجدار الفاصل بين القدس وقدس الأقداس، الجدار الفاصل بين الأرض والسماء؛ فُتحت الطريق أمام البشر للعودة إلى السماء. وفي نفس اللحظة تفتحت القبور وقام كثيرون بالجسد، أي ان الرب في لحظة موته انتصر على الشرير بدليل ان الذين كانوا مائتين قاموا بالجسد. دليل تسلّط الشرير على البشر في القديم كان الموت، وقيامة البشر بالجسد هي علامة تحرّرهم من هذا السلطان.

اللافت في هذا النصر الإنجيلي ان الذين قاموا خرجوا من القبور بعد قيامة الرب، إذ لم يكن لائقاً أن يظهروا للناس قبل أن يظهر هو قائماً من بين الأموات، ذلك لأنه بكرٌ في كل شيء: «... وبكراً من بين الأموات ليكون هو نفسه الكلَّ متقدِّماً في كل شيء» (قداس القديس باسيليوس). إذاً، قام الأموات لحظة موته ولكنهم انتظروا قيامته ليظهروا للناس. لهذا لا تفصل الكنيسة بين الصلب والقيامة وتعتبرهما عملاً واحداً لا يتجزأ. القيامة ابتدأت لحظة الصلب وتُوّجت حين ظهرَ الرب قائماً من بين الأموات. لذا ترتل يوم الخميس العظيم «اليوم علِّق على خشبة... فأرِنا قيامتك المجيدة»، وترتل يوم الجمعة العظيم تبريكات القيامة (مبارك أنت يا رب علمني حقوقك، جمع الملائكة اندهش متحيِّراً...) و«لا تنوحي عليَّ يا أمي لأني سأقوم وأتمجَّد...». لذلك كان الفصح في الكنيسة في القرون الأولى يعني الصلب والموت والقيامة، أي انه كان يُعيّد للموت والقيامة في نفس اليوم، لوعي الكنيسة ان لا فصل بين ثمار الصلب والقيامة الخلاصية. لاحقاً تمَّ الفصل بين التذكارات الليتورجية ورُتبت على ما نعرفه اليوم، لكن دون الفصل في معنى كل من هذه الأعمال الخلاصية وثمارها للبشر.

وقام على ما في الكتب

«وصُلب عنا على عهد بيلاطس البنطي، وتألّم وقبر وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب». بهذه الكلمات، يعبّر دستور الإيمان النيقاوي ـ القسطنطيني، الذي نتلوه في كل قداس إلهي، عن الحدث الخلاصي المتمثّل بموت يسوع الناصريّ على الصليب وقيامته. هذا الدستور، شأنه شأن كل قوانين الإيمان التي استخدمها المسيحيون في القرون الأولى، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالكتاب المقدّس. فآباء المجمعَين المسكونيَّين الأول (نيقية، ٣٢٥) والثاني (القسطنطينية، ٣٨١) كانوا حرصاء على أن يأتي الدستور، من حيث لغته، ملتصقاً كلّ الالتصاق بمضمون الكتاب المقدّس، وحتى بعباراته. أمّا عبارة «المساوي للآب في الجوهر»، وهي الوحيدة في الدستور من خارج

لله الذين يؤمنون باسمه*
الذين لا من دمٍ ولا من
مشيئةِ لحمٍ ولا من مشيئةِ
رَجُلٍ لكنْ منَ الله وُلدوا*
والكلمةُ صار جسداً وحلَّ
فينا (وقد أبصرْنا مجدَهُ
مجدَ وحيدٍ من الآب)
مملوءاً نِعمةً وحقًّا*
ويوحنا شهِد له وصرخ
قائلاً هذا هو الذي قلتُ
عنهُ إن الذي يأتي بعدي
صار قبلي لأنه مُتقدِّمي*
ومن مِلئهِ نحن كُلُّنا أخذنا
ونعمةً عوض نعمة* لأن
الناموس بموسى أُعطي
وأمَّا النعمةُ والحقُّ
فبيسوعَ المسيحِ حصلا.

تأمل

ها الفصحُ قد أتى، اليومُ البَهج، المانح الفرح والسرور، يومُ قيامة المسيح، الفصح العائد إلينا في كل سنةٍ بل الصائر بالأحرى كلَّ يوم وعلى الدوام في النفوس العارفة سرَّه. لقد ملأ قلوبَنا فرحاً وبهجةً لا توصف وأنهى في الوقتِ ذاته مشقّة الصوم الوقور، لا بل أكمله وعزّى نفوسنا في آنٍ واحدٍ. من أجلِ ذلك يَعبُر كما ترون، داعياً إيّانا

الكتاب المقدّس، فتشكِّل الاستثناء الذي يثبّت القاعدة. إذ من المعروف أنّ المجمع المسكونيّ الأول شهد نقاشاً طويلاً قبل إقرار هذه العبارة كجزء من الدستور، وذلك لأنّها لا ترد في الكتاب المقدّس. أمّا الحجة التي أدّت، في نهاية المطاف، إلى قبولها فهي انسجامها مع مضمون الكتاب، رغم عدم ورودها فيه لفظاً.

ارتباط قانون الإيمان النيقاويّ – القسطنطينيّ بالكتاب المقدّس ينطبق أيضاً على الجملة التي تعبّر عن موت السيّد وقيامته. فبعد تشديد النص على أنّ موت ابن الله كان حدثاً تاريخيًّا، لا خيالاً، وذلك عبر الإشارة إلى أنّه تمّ في زمن الوالي بيلاطس البنطيّ وهذا هو الإسم الوحيد الذي يرد في الدستور، يجري التطرّق إلى موت السيّد ووضعه في قبر وقيامته «في اليوم الثالث على ما في الكتب». من الملاحظ أنّه ليس في الدستور فعل يذكر الموت صراحة. فهذا متضمّن في كلٍّ من فعلَيْ «صُلب» و«تألّم». المهم أنّ الحديث عن موت السيّد وقيامته حسب الكتب، هنا، مستمدّ، إلى حدٍّ بعيد، من قانون إيمان نعثر عليه في رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، حيث نقرأ: «فإنني سلّمتُ إليكم في الأوَّلِ ما قَبلْتُه أنا أيضاً أنّ المسيحَ ماتَ من أجلِ خطايانا حسبَ الكُتُب، وأنّه دُفِنَ وأنّه قامَ في اليومِ الثالثِ حسبَ الكُتُبِ، وأنّه ظهرَ لِصفا ثم للإثني عشَرَ» (١ كور ١٥: ٣–٥). لعلّ هذا النصّ البولسيّ هو أقدم دستور إيمان مسيحيّ وصل إلينا. وهو يلخّص فحوى إيمان المسيحيين، في القرن الأول الميلاديّ، وهو أنّ المسيح «مات» و«دُفن» و«قام» و«ظهر». من الواضح أنّ ثمّة، بين هذه الأفعال الأربعة، فعلَيْن أساسيَّين هما «مات» و«قام». فالدفن والظهور إنّما يشكّلان البرهان على حقيقة ما جرى من موت المسيح وقيامته. فالذي مات على الصليب دُفن، بحيث يستحيل التشكيك بفعليّة موته. والذي قام في اليوم الثالث ظهر لصفا وللإثني عشر، ما يجعل بشرى القيامة مستندةً إلى شهادة مَنْ تراءى لهم الناهض من القبر. وما يؤكّد مركزيّة الموت والقيامة، في النصّ البولسيّ ذي الأفعال الأربعة، أنّ عبارة «حسب الكتب» – وهي تُترجم في دستور ايمان بـ «على ما في الكتب» – ترد مرّتين، مقترنةً بالفعلَيْن المشيرَيْن إلى الموت والقيامة. ثمّة شيء من التراتبية إذاً في بنية الأفعال الأربعة. فالفعلان الأساسيّان هما «مات» و«قام»، يؤكّد ذلك قول الرسول أنّهما حصلا «حسب الكتب»، أمّا الفعلان الآخران «قُبر» و«ظهر» فوظيفتهما تأكيد حقيقة الموت والقيامة.

ما معنى قول الرسول إنّ موت المسيح وقيامته حصلا «حسب الكتب» أو «على ما في الكتب»؟ ما لا يرقى إليه الشكّ أنّ لفظ «الكتب» يدلّ على العهد القديم. فكتب العهد الجديد كانت ما تزال في طور النشوء، حين خطّ الرسول بولس كلماته إلى الكورنثيّين. من المعروف أنّ المسيحيّين الأُول بحثوا، في نصّ العهد القديم، عن نصوص تتّصل اتّصالاً مباشراً بما اختبروه في يسوع الناصريّ. ومن بارز الأمثلة على هذه الظاهرة ما يؤكّده الإنجيليّ متى، في مستهلّ إنجيله، من توازٍ بين بعض آيات العهد القديم وبعض أحداث حياة يسوع كقوله، مثلاً، إنّ ولادة

والمؤمنين معاً إلى الراحة والشكران.

فلنشكر إذاً الرب الذي أهَّلنا لأن نجتاز بحر الصوم وهَدانا بفرح إلى مرفأ قيامته. ليشكره كلُ من خاض شوطَ الصوم بجدٍّ ونشاط، بهمةٍ وحرارة، بجهاداتٍ في سبيل اكتساب الفضيلة. وليشكره أيضاً كلُّ من تقاعس بسبب الإهمال وصِغَر النفس، لأنه يمنح أكاليل مضاعفة للمجاهدين الأشداء، وأجراً لائقاً بأعمالهم، ويسامحُ الضعفاء المتهاملين لأنه رحيم ومحبٌّ للبشر. ينظر إلى قلوبنا واستعدادها، إلى النوايا، أكثر ممّا ينظر إلى الأتعاب الجسدية التي نبذُلها في سبيل الفضيلة، أبذلنا جُهداً كبيراً بعزمٍ كلّي أم قمنا، بسبب ضعف الجسد، بأقل مما يقوم به المجاهدون الأقوياء. يوزّع الجوائز ومواهبَ الروح لكل واحدٍ حسب النوايا وبتوافق. فإما أن يُبرز أحدَ المجاهدين الأشداء ويمجّده أو يدعه وضيعاً راجياً منه نقاوة أكبر.

القديس سمعان اللاهوتي الحديث

المسيح من بتول أتت تحقيقاً لنبوءة من اشعياء: «هوذا العذراءُ تحبَلُ وتَلِدُ ابناً ويَدعونَ اسمَهُ عمَّانوئيلَ» (متى ١: ٢٣). في هذا الإطار، استنجد المسيحيون بنصوص المتألّم، التي نعثر عليها أيضاً في كتاب أشعياء، معتبرين أنّ فيها إشارات مباشرة إلى موت يسوع: «كشاةٍ تُساقُ إلى الذبحِ وكنعجةٍ صامتةٍ أمامَ جازيها فلم يفتحْ فاهُ» (٥٣:٧). غير أنّ نصوص العهد القديم التي رأى المسيحيون فيها علامات على موت يسوع لا تقتصر على كتاب اشعياء. فبعضها نعثر عليه في المزامير، أو لدى أنبياء آخرين مثل أرمياء ويونان. ولكن، ماذا عن القيامة؟ هل ثمّة نصّ، أو نصوص، في العهد القديم تشير إلى قيامة الرب في اليوم الثالث؟ لقد تنبّه العارفون بالكتاب المقدّس إلى نصٍّ من كتاب هوشع: «هلُمَّ نرجعُ إلى الربِّ لأنّه هو افترَس فيشفينا، ضرَبَ فيُجبرُنا، يُحيينا بعدَ يومين، في اليومِ الثالثِ يُقيمُنا فنحيا أمامه» (٦:١-٢). لكنّ اللافت أنّ الوثائق المسيحية الأولى، ولا سيّما كتب العهد الجديد، لا تشير إلى هذا المقطع بوصفه نبوءةً عن قيامة الربّ. كما أنّ النصّ البولسيّ في كورنثوس، الذي يستقي منه قانون الإيمان عبارته «وقام على ما في الكتب»، يتجنّب الإشارة إلى نصٍّ واحد أو إلى نبوءة واحدة من العهد القديم. ماذا يسعنا أن نستنتج من كلّ هذا؟

لئن عمد المسيحيون الأُوَل إلى ربط أحداث حياة يسوع بنصوص معيّنة من العهد القديم، إلاّ أنّ قول الرسول إنّ موت الرب وقيامته حصلا «على ما في الكتب»، إنّما يدلّ على أنّهما يحقّقان إرادة الله الخلاصيَّة المعبّر عنها في كتب العهد القديم بمجملها. فالرسول، في رسالته إلى أهل كورنثوس، لا يشير إلى نصٍّ أو إلى كتاب معيَّن. وعبارة «الكتب» تشير إلى كتب العهد القديم بوصفها وحدةً تعبّر، في مجموعها، عن مخطّط الله الخلاصيّ الذي يبلغ ذروته في الكلام النبويّ السارّ على المسيح المنتظر: «بولس... المدعوُّ رسولاً المفرَزُ لإنجيل اللهِ الذي سبقَ فوعدَ به بأنبيائه في الكُتُبِ المقدَّسةِ» (رو ١: ١-٢). أهميَّة هذا التشديد المسيحيّ على أنّ ظاهرة يسوع الناصريّ، ولا سيّما موته وقيامته، ليست مسألةً كيفيَّةً، بل هي تشكّل تحقيقاً لمواعيد الله الخلاصيّة التي تنطوي عليها كتب العهد القديم، هذه الأهميَّة نابعة من نقاش المسيحيين مع اليهود الذين لم يؤمنوا بيسوع. فهؤلاء كانوا يعتبرون أن لا علاقة للناصريّ بما نطقت به كتبهم المقدَّسة، أي ما كانوا يسمّونه «موسى والأنبياء». بخلاف ذلك، رأى المسيحيون، وهم على هذا الإيمان إلى اليوم، أنّ موت يسوع الناصريّ وقيامته ليسا عملاً خارقاً قام به ساحر متجوّل عاش في ما يُعرف بـ«القرن الميلاديّ الأول»، بل هما ذروة قصة الله مع الإنسانيَّة ومع شعبه المختار، هذه القصة التي تروي كتب العهد القديم بعض أهمّ فصولها. بهذا المعنى، قيامة السيد «على ما في الكتب»، التي نعلنها في دستور الإيمان، تمثّل أمانة الله لكلّ ما تكلّم به قديماً، حين أرسل ابنه الوحيد إلى العالم، هذا الإبن الذي دُعي «كلمةً»، لأن فيه كلّ كلمات الله الأخرى وبه نصل إلى منتهى معناها.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb